رحلة البحث عن الذات في ظل الصراع الإيديولوجي

أ. ملفوف صالح الدين

إن اقتراب القارئ الجزائري من عالم ياسمينة خضرا الروائي هو اقتراب استحسان واستهجان و تلذذ و تقزز في ذات الوقت، و قد يحتاج فعل القراءة المرتبطة بالنص عند هذا الروائي إلى نوع من الخلفية المرتبطة ببعد معرفي، يلخص تجربة الجزائر في مجال الكتابة السردية التي استطاعت أن تبني لنفسها بنيات جمالية و فنية تعتمد على نبذ المُتَواضَعِ عليه و تجاوز المعهود إلى اللامعهود، « فالقارئ لا يواجه النص معزولا و وحيدا ، بل يواجهه من خلال الأنظمة النصية المترسبة في لا وعيه، و من خلال ذكرياته القرائية » 1.

إن تجربة ياسمينة خضرا هي تجربة تعتصر واقع الجزائر في عشريتها السوداء ، المتمثلة في سنوات التجريب، والتنقيح، والمعاودة، والحلم الممزوج بالفرح و القرح، والسؤال ورد السؤال . عشرية الوهم و التخيل. عشرية البحث عن الذات أو بالأحرى الهروب من الذات، وهذا ما تمثله شخوص رواية « بم تحلم الذئاب ».

ياسمينة خضرا ذلك المشروع الروائي الرامي للنمو و الاكتمال، ذلك النص الذي كُتِبَ ولم يُقْرَأ في أوانه حضرا أو حيطة و حذرا، أو قُرِأَ ولم يُوَفَّ حق قدره بسبب تواضع القراءات الجزائرية مع كتابات من هذا النوع، و هو تواضع زائد عن اللزوم أفضى بها إلى الاحتقار والاستصغار، لأن القراءة الأدبية قراءة تذوقية انطباعية بالدرجة الأولى -حسب هذا القارئ- مع نسيانه أو تناسيه قضية الفحص النقدي «لتبيان مصداقية حكم الذوق ، وتبريره علميا بكشف أسباب الجمال» 2 و مواطنها فيه، ومن ثم يتحول القارئ من مستهلك للنص إلى منتج له كما هي مقولة بارت . وهنا يبقى السؤال معلقا عن مصير هذه التجربة كتابة وقراءة ، نجاحا وفشلا . فما مدى نجاح هذه التجربة فـ ي صياغة عوالم فنية و جمالية ؟ و ما مدى تحقيقها لمصداقية قرائية تؤكد صدق التجربة ونجاحها في قالب الفن والجمال؟.

تعرِّي القراءة بوصفها مصطلحا نقديا و إجرائيا مفتاح للغة الفكرية والمفهومية والمعرفية الحالية، بيد أن العلاقة التحليلية بين القارئ والمقروء تتعقد إحالاتها و مرجعياته ا وتتداخل فيما بين ها لتفضي إلى : «فك شفرة المكتوب أو المنسوج أو المقروء اللغوية والجمالية و الفكرية بوصفها مسارا تناصيا و اجتماعيا يجمع داخله سياقات إنتاج خارجية أدبية، ثقافية و إيديولوجية في ترابطها وتأثيراتها في ظروف التلقي و القراءة » 3.

منذ صدور روايات ياسمينة خضرا الأولى يشعر القارئ بقدرة الكاتب على تجاوز الحدو د و الفواصل التي كان يصبو إليها، وقد أظهر منذ ممارساته الأولى لفعل الكتابة أنه قد اتخذ قرارا حاسما، لكنه لم يتبين أنه واحد جذري أم أنه سيتفرع إلى مجموعة من القرارات

الثانوية المتولدة عنه، وهذا القرار هو أن يقرأ تجربته الحياتية التي هي تجربة في الكتابة التي لا تعني تحت أي ظرف من الظروف الثبات والاستقرار. إن الكتابة قد تعني بحثا عن الذات وفي الذات ومراجعة لها ولانتصاراتها وانكساراتها، و عدم الإقرار بالفشل والهزيمة و محاولة الوصول إلى الهدف المحدد سلفا.

إن الاقتراب من عناوين أعمال ياسمينة خضرا الروائية- لا سيما بم تحلم الذئاب - هو نوع من المجازفة الافتراضية لإيحاءات العنوان ودلالاته الثرية، فذئاب الرواية ما هي في حقيقة الأمر إلا أصناف بشرية تجردت من إنسانيتها، و تنوعت أحلامها وأوهامها ما بين الواقع و السراب بتنوع توجهاتها الثقافية والإيديولوجية وحتى الأخلاقية، وما متن الرواية إلا تأكيد على ذلك و إثبات له، فبعد انفلات الوضع السياسي في الجزائر في عشرية حمراء خُ ضِّبتْ بدماء الناس الأبرياء، فُتِحَ المجال أمام أعمال عسكرية حركها دافع الرغبة في الوصول إلى سلطة البلاد مع تغطيتها بقناع إقامة دولة إسلامية، والقضاء على الطواغيت أينما كانوا.

هذا الإطار العام الذي صبغ يوميات الجزائر و الجزائريين تنامت فيه الكثير من الأحلام و الآمال، هذه الأخيرة التي كانت في حقيقتها كوابيس وآلام لا تُحَقَّقُ إلا بفصل الرق اب عن الأجساد، وتلطيخ الأيادي بالدماء و لو دون قص، تماما مثلما حصل للشاب نافا وليد و هو يبحث عن سبل الرزق والاسترزاق، لينحدر شيئا فشيئا إلى هاوية الإرهاب و ينحدر الحلم معه إلى جهاد أبناء جلدته من الم سلمين، لأنهم من رجال البوليس ومن لم يمت بالرصاص مات بحَدِّ السكين، و« يُهَسَّرُّ هذا التصرف في المساجد : إنها فضيلة تحويل الم يت إلى قربان والمأساة إلى ولاء » 4 .

إن البحث عن الذات في رواية بم تحلم الذئاب ما هو في حقيقة الأمر إلا ه روب منها لتعدد الظروف والأسباب، فبعد حصول نافا وليد على عمل يقيه شر مد اليد طلبا للصدقة ها هو يصرح قائلا: «في اليوم الثامن حين كنت أستعد بشكل جدي لترك كل شيء والعودة إلى متاهات حي القصبة...» 5. نعم، ثمانية أيام بعد استلام مفاتيح السيارة يقرر ول يد تطليق حياة الأغنياء الجافة والعابسة عبوس أفرادها. ولم يكن هذا الشاب الوحيد الباحث عن ذاته ، فالعائلة التي كان يعمل عندها و على الرغم من غناها، كان كل فرد منها يبحث عن ذاته أو بالأحرى يهرب من ذاته ، فالسيد صالح راجا يخون زوجته مع أختها بعد خياناته المتكررة مع سكرتيراته، وها هو ابن آل راجا الملقب جونيور يغير قنينة الخمر بالأ خرى، و يتلاعب ببنات الناس حتى قضى على إحداهن بجرعة زائدة من الكوكايين، وها هي صونيا بنت آل راجا تدخل في مواجهة كلامية مع خطيبها على مرأى من الناس ومسمعهم ، لتعلن عن فتح فضيحة جديدة من فضائح آل راجا ، ثم ماذا يعني الثراء و أم السيد را جا عجوز مسنة في عقدها الثامن « عمياء ملفوفة في لباس مهترئ لكنه نظيف » 6 تقطن غرفة من غرف دار الرحمة ؟. أما حميد الذي يشتغل لحساب نجل السيد راجا فيعدد انتصاراته في رياضة الملاكمة ، ثم الانكسارات التي أعقبتها لأنه لم يخضع لمسؤولي الفدرالية و ضغوطهم المستمرة، فكان مآله الطرد ليتقلد الكثير من الأعمال التافهة لأن هذه البلاد ليست للخيول الأصيلة « في بلادنا لن يحصل المرء على الخلود إلا عند الشعب البسيط ، فعند البسطاء من الناس تجد العز كاملا »

7. كيف يخيب أمل أبو تراب- أحد أفراد مجموعة نافا - الذي كان في أفغانستان و رأى الأمور تحدث بشكل مغاير ؟ «في كل مرة كان المجاهدون يسقطون فيها في كمين كانت الزو ابع الرملية تهيج لتغطي انسحابهم، أعطاب عجيبة كانت تجمد دبابات العدو و أسراب من الطيور كانت تهاجم المروحيات السوفياتية » 8. أليس لهم حق حدوث المعجزة في بلادهم؟.

إن رحلة البحث عن الذات التي خاضتها شخصيات هذا العمل ، تسوقها إلى التفتيش عن المكان الذي يكفل لها جمع المتفرق و الممزق في داخلها ، فنافا وليد مثلا جاب الجزائر العاصمة طولا وعرضا ليجد ذاته و يثبت وجوده ، فمن حي القصبة الشعبي إلى أحد أحياء العاصمة التي لا يدخلها إلا أصحاب الجيوب المنتفخة ، ليكتشف حياة الأغنياء التي قادته من العاصمة إلى فوكا مارين، و وهران، و تيزي وزو ، و بعد رحلة ليست بالطويلة يعود من جديد إلى جدران غرفته المظلمة بسبب التخلي عن العمل عند ه ذه العائلة ، و يجد نفسه مجبرا على قبول أول وظيفة تعرض عليه، فتلقفته أيدي الإخوان المسلمين على ظمأ ليكون سائق سيارة أجرة، يُوَجَّ هُ مدخولها إلى عائلات المحتجزين في مكان ما من الصحراء . ومن سائق سيارة أجرة، لِيُلَقَّ وليد بمهمات صغيرة لا تتعدى نقل الملتحقين الج دد بالجبهة الإسلامية من حي لآخر، أو استقبال بعض الضيوف في محطة القطار ، أو نقل بعض الوثائق كبيانات تدعو الشباب إلى عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية أو تدعو التجار إلى عدم دفع الضرائب، و شيئا فشيئا أصبح يشارك في الهجومات التي تستهدف مؤسسات الدولة . وجراء صنيعه هذا يصبح ملاحقا من رجال الشرطة ، إلى أن يبلغه نبأ مقتل والده على أيديهم، و هنا يطلب الالتحاق بالجبل ليكون هذا الأخير فرصة إثبات الذات بالانتقام. إذا، من حياة المدينة إلى حياة الجبل، و بعد تقلد الكثير من المناصب ها هو يجد ذاته أميرا ، ليحس في الأ خير بنشوة السلطة و حلاوة الحكم. بيد أن النشوة لم تدم طويلا بسبب محاصرة أف راد الجيش الوطني الشعبي لكتيبته، فما كان من أمره إلا الرجوع إلى المدينة ليحتمي بها، لكن المفاجأة كانت أكبر حين وجد نفسه محاصرا في بيت من البيوت رفقة أفراد مجموعته، ويشهد مقتلهم الواحد تلو الآخر .

ما قيل عن نافا وليد وانتقاله الدائم من مكان إلى آخر يقال عن كل ش خصية من شخصيات هذا العمل تقريبا، غير أن الملفت للانتباه هو الدور الذي أداه هذا المكان الذي تعدى حدود الديكور ، ليشكل المحرك الأساسي للأحداث والمُسَيِّرِ لها قدما إلى الأمام . كما استطاع الروائي بصنيعه هذا أن يخلق تركيبة شخصية فريدة طبعت كل شخصية من شخصياته وفق البيئة التي تتواجد فيها، فقد عرفنا نافا وليد الفقير في بيئته الطبيعية، وعرفنا نافا وليد الغني اقتداء بمن كان يعمل عندهم ، و عرفنا نافا وليد الشريد الطريد بعد التحاقه بالجماعة ، ثم نافا وليد المُ طَارِد عندما تقلد الإمارة ، و أصبح يشرف على كتيبة كاملة يوجهها كيفما شاء و أينما شاء .

لقد استهل الروائي عمله الأدبي من النهاية ، عندما حاصر رجال الشرطة جماع ة مسلحة في زقاق من أزقة العاصمة، مع ذكر بعض المواقف التي لا يطيق الإ نسان العادي سماعها أو رؤيتها أو حتى مجرد رسمها في مخيلته ، كإصابة أحد أفراد الجماعة

حين: «انفجرت في وجهه عوينة الباب، سقط إلى الخلف، معورا، مؤخرة الرأس مشروخة . »9. ثم يأتي دور البطل حين يسترجع الماضي ، بتذكر أول ضحية سقطت على يديه يوم الأربعاء 12 ج انفي 1994 على الساعة السابعة و خمس و ثلاثين دقيقة ، لقد كان قاضيا.

إن استرجاع الماضي في هذا الحين بالذات يفتح الباب واسعا لمجموعة من التأويلات و التساؤلات : هل كان اعتزازا بالماضي ؟ أم تحسرا عليه ؟ هل كان إيذانا ببداية النهاية ؟ أم أنه نهاية البداية ؟ . ثم كانت هذه النهاية البداية أو البداية النهاية مفتوحة على كل الاحتمالات ، لأن القارئ لم يجد إجابة تأخذ بيده و توصله إلى الحال الذي آل إليه البطل ، هل قُتِلَ ؟ أم اعْتُقِلَ ؟ أم لاذ بالفرار ؟ و تكون النتيجة النهائية بعيدة المنال عن القارئ إلا إذا أراد الروائي له ذلك ، و كتب جزء ثانيا ليجيب على هذا التساؤل المطروح لحد الساعة .

إن الجانب الجمالي الفني في رواية «بم تحلم الذئاب» يكمن في الواقعية التي حاول صاحبها إضفاءها عليها، وهي واقعيـة تتماشى والحيـاة الاجتماعيـة والأمنيـة والإيديولوجية التي مرت بها الجزائر قبل العشرية السوداء و إبانها، و قد شَهِدَ فيها مقتل الشيوخ و الرضع والشباب المتهم بالطغيان أو العمل لحساب الطواغيت، لأنهم من أفراد الجيش أو الشرطة أو الدرك أو أي شيء آخر وثيق الصلة بالحكومة الجزائرية كأن يكون سائقا أو قاضيا أو أستاذ ا. كيف تحولت سياسة الجزائر الداخلية من الحزب الواحد إلى التعددية الحزبية ليخرج من رحمها حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويدخل المعترك السياسي ندا للند مع الأفلان و تخرج الأمور عن مسارها السياسي لتتحول إلى عصيان مدني فإرهاب لا يبقي و لا يذر كاد أن يتحو ل في آخر مراحله إلى حرب أهلية ؟.

هذه الرواية إعلان صريح عن سقوط الإيديولوجيات الواحدة تلو الأخرى ، إيديولوج ية السلطة ، و يديولوجية الأمير، وإيديولوجية الجماعات المسلحة ، و سقطت معها إيديولوجيات أخ رى ولم تبق إلا إيديولوجية النص، الذي اختار لنفسه خطابا اجتماعيا وفكريا وثقافيا بعيدا كل البعد عن متاهات الإيديولوجيات وغوغائها.

بم تحلم الذئاب قراءة جريئة لأزمة الجزائر مع الإرهاب الديني المسلح ، الذي حَ وَّلَ العشرية الأخيرة إلى دم، و بكاء، وعويل، وموت، و بسالة أيضا ، باعتراف أحد أفراد جماعة نافا وليد ، و هو يتذكر موقفا له مع أحد ضحاياه «في ساعة الحقيقة يُظْهِرُ لك شجاعة لست أدري من أين له بها ليقسمك إلى شطرين ، هل تتذكر ؟ لقد رفض الركوع ، لم يرتجف عندما أغمدت مسدسي في صدغه، هيا افعلها، كذا قال، إني مستعد، رأسه تفرقعت كدمل ضخم . » 10. ثم هي قراءة تشريحية لأسباب هذه الأزمة و جذورها العميقة ، بدء بالفراغ السياسي الذي قمع الحريات الفردية واستصغر الجماعية منها وقزمها ، مرورا بالأزمات الاجتماعية التي تمخضت عنها أزمات نفسية أساسها مركب النقص واحتقار الذات، وصولا إلى الفراغ الثقافي الذي حل محله أفكار التطرف والتعصب و القتل الهمجي، في سبيل حور العين و الفردوس الموعود.

إن نص بم تحلم الذئاب صورة صارخ ة و صادقة لمحنة شعب يبحث عن ذات، وهو في المقابل نص ذات وانتماء، ونص يشعرنا بالضياع و الشتات، و كأن الذات أصبحت ذوات

والانتماء انتماءات. وهو نص يعكس الذات الحالمة، ثم يقفز عليها ليجمعها في صراعات ومواجهات مع ذوات أخرى، وهو بعد كل هذا نص يبحث عن الهوية المرتبطة بالمكان ، حيث انتهى النص إلى أن العودة للبيئة الأم أهون وأيسر من العيش أو الموت بعيدا عنها، وهنا ساوى النص بين الهوية والمكان والكرامة.

لقد قَدَّمَ محمد مولسهول روايته «بم تحلم الذئاب» مستعيرا اسما أدبيا رسويا للإفلات من سلطة الرقيب، والحصار الذي كانت تضربه عليه قوانين المؤسسة العسكرية، وهو ضابط في الجيش الوطني الشعبي. واختيار هذا الاسم لم يكن عن اعتباط و إنما قُصِدَ إليه كل القصد، إنه البحث عن حرية القول، في ظل سياسة تكميم الأفواه، هذا من جهة، و من جهة أخرى هو عربون احترام و تقدير للمرأة الجزائرية الصامدة التي عانت أكثر من غيرها ويلات هذه العشرية الدموية في تاريخ الجزائر. 11.

الإحالات

1- جان ستارويسكي . نحو جمالية للتلقي . ترجمة : محمد العمري . دراسات سال . فاس . عدد 6 . 1992 . ص 18 .

2- عبد الله محمد الغذامي . الموقف من الحداثة و مسائل أخرى . دار الميلاد . جدة .ط 1. 1987 . ص 109 .

3- عمار بلحسن . قراءة القراءة (مدخل سوسيولوجي) . مخبر سوسيولوجية التعبير ال فني . جامعة وهران . دفتر رقم 3 . ج 1 . 1992 . ص 22 .

4- ياسمينة خضرا . بم تحلم الذئاب . ترجمة : أمين الزاوي . دار الغرب للنشر و التوزيع . وهران . 2002 . ص 178 .

5- المرجع نفسه . ص 44 .

6- م ن . ص 64 .

7- م ن . ص 47 .

8- م ن . ص 16 .

9- م ن . ص 20 - 21 .

10- م ن . ص 19 .

11- حوار مع الروائي ياسمينة خضرا أجرته الصحفية ن . نصيرة . جريدة الخبر . الاثنين 13 سبتمبر 2004 .